شكسبير

اسباب شهرته

ابن في الجزء الماضي ان شكسبير اشهر رجل قام في اوربا واميركا بعد نبوليون بونابرت اذا اعتبرنا مجموع ما كُتب عنهُ في الانسكلوبيديات المشهورة. واما اذا اعتبرنا ما كتب عنهُ في غير الانسكلوبيديات وما لهُ من الشأن في نفوس الاوربيين والاميركيين خاصتهم وعامتهم كما يظهر من استشهادهم باقوالهِ والاقبال على مشاهدة رواياتهِ فهو اشهر من نبوليون ايضاً. ولرواياتهِ واشعارهِ المقام الاول عند الانكليز والاميركيين بعد التوراة والانجيل فترى كتّابهم وشعراءهم وخطباءهم وجمهورهم رجالاً ونساءً يرصعون اقوالهم بالدرر المقتبسة من بحورهِ.

وهذه الشهرة لم يحلم بها ولا توخّاها ولا كان لهُ في عصرهِ شيءٌ يذكر منها بل لو بنينا حكمنا على ما نالهُ منها وهو حي ثم وهو ميت الى ان مضى على وفاتهِ مئة عام لرأينا انهُ عاش ومات مثل اواسط الكتّاب فلم يبلغ مبلغ كبار العلماء والشعراء وقواد الجيش وامراء البحر مثل نيوتن وتنسن وولنتن ونلسن بل كان كما قال فيهِ احد واصفيهِ كالحجارة التي تفرز المادة اللؤلؤية حول ذرة في جسمها فتكون منها جوهرة غالية الثمن ترصّع بها تيجان الملوك وهي لا تعرف انها فعلت شيئاً

يدلُّك على انهُ لم يكن يعلم قيمة رواياتهِ انهُ لم يهتم بطبعها ونشرها والذين طبعوها ونشروها في حياتهِ لم يستأذنوهُ في ذلك ولا استشاروهُ ولا اعطوهُ شيئاً من ربحها ولعلهم عبّروا وبدلوا فيها ما شاؤوا وهو لاهٍ عنهم مكتفٍ بالمال القليل الذي كسبهُ من تمثيلها كما سيجيء في ترجمتهِ. ولم يخلف اولاداً يغارون على اسمهِ ويستفيدون من شهرتهِ فيستخدمون وسائل الشهرة العادية كخطابات التأبين واستنشاد الشعراء والنشر في الجرائد فانهُ رزق ابناً وحيداً وابنتين فابنهُ توفي قبلهُ بعشرين سنة وابنتاهُ تزوجتا ولكن ماتت اولادهما في حياتهما وانقطع نسلهما

ولم يكن من بيت غنيّ ومجد فان اباهُ كان حائكاً او بائع جلود وكان في اول امرهِ على شيءٍ من السعة ثم اختبر الى درجة الاملاق. وهو نفسهُ تزوج بفتاة اكبر منهُ سنّاً لانها كانت على شيءٍ من الثروة ثم هرب من وجه القضاء ولجأ الى التمثيل للتعيّش ولم يكن في اول الامر

مثلاً بل كان خادماً في دار التمثيل يمسك خيول الذين يأتون راكبين ولا خدام معهم تمسك خيولهم . ثم لما انتظم بين الممثلين وظهرت براعته في التمثيل وفي تأليف الروايات التمثيلية اكرمهُ اهل وطنهِ كما يكرمون كل ممتاز بارع ومتفوق بليغ ولكنهم لم يغالوا في اكرامهِ . ولما توفي رثاهُ بعض اصدقائهِ ولم يبالغوا في مدحهِ بل وصفوهُ بالانس والظرف . ويستدلُّ من ذلك كلهِ ان الشهرة التي لهُ الآن مكتسبة نشأت بعد موتهِ وتزايدت على مرور الزمن تكيف ذلك

التمثيل فن جميل وتجارة رابحة ومجالهُ واسع جدًّا عند الاوربيين والاميركيين لان النساء يشاركن الرجال فيهِ ولا تأنف اجمل النساء والبنات واطربهن صوتاً ان تكون في عداد الممثلات . ولا يخفى ان المناظر الجميلة والاصوات المطربة تستهوي القلوب واذا اقترنت بروايات تاريخية او فكاهية كثيرة الحوادث غريبة النوادر مفعمة الوقائع مشتملة على تاريخ الامَّة صار لها اعظم وقع في النفوس . واذا كانت كثيرة الاشعار والاغاني وتكررت مرة بعد اخرى استظهر السامعون كثيراً منها فالفتها آذانهم وادمنتهم فصاروا يرتاحون اليها ولا يصبرون على الانقطاع عنها . واذا كانت كثيرة النكات الادبية والفكاهية مملحة بالمواعظ والحكم وجوامع الكلم طرب لها كل احد حتى العلماء وخدمة الدين . واذا تناولت كل احوال الناس ومعايشهم رجالاً ونساء حتى يرى فيها كل احد شيئاً مما يعملهُ او يمرُّ بهِ تناولته الاقبال عليها كل الطبقات

ولكن ذلك كلهُ لا يكفي ليصير لها الشان الذي صار لروايات شكسبير بل لا بدَّ من اناس يحملون الجمهور على الرغبة في مشاهدة الروايات بكل طرق الترغيب . واتفق ان رأى البعض في صناعة التمثيل مجالاً واسعاً للكسب لانها تشمل الرواج الى ما لا حدَّ لهُ فاستخدموا لها امهر الرجال في الالقاء والتمثيل واجمل النساء واطربهن صوتاً وارشقهن حركات ودفعوا لهم واجور الطائلة وجهزوا مشاهد التمثيل بما يشاهون بهِ ازياء الناس في كل العصور وانواع اسلحتهم واشكال منازلهم وطرق معيشتهم واحضروا امهر الكتَّاب لوصف التمثيل وانتقاد الممثلين والممثلات وصورهم صوراً ترتاح لها النفوس وذكروهم وذكروهن بما لا مزيد عليهِ من المدح والتبجيل فصار الموه في اوربا واميركا يهبُّ ما يدفعهُ لمشاهدة التمثيل كما يهبُّ ما يدفعهُ لشتري طعامهِ ولباسهِ ويهتم بهِ اكثر مما يهتم بالمال الذي ينفقهُ على تعليم اولادهِ . والكل في ذلك سواء غنيهم وفقيرهم . ورأى هؤلاء المتاجرون بالتمثيل المكتسبون منهُ ان روايات شكسبير ملك شائع لا صاحب لهُ ولا يطالبهم احد بحق كما يطالبهم المنشئون فاكثروا من تمثيلها

وترغيب الناس فيها فزاد اقبالهم عليها اقبالاً ومقتها الالسنة على مرور الزمن واشربت الافئدة معانيها ومبانيها · وقد اجمع كبار المنتقدين من الانكليز انها حرية بذلك بل هي احرى به من غيرها ولو صح لنا ان نبدي رأيًا لتردد كثيراً في موافقتهم ولو اتيح لنا ان نترجم هذه الروايات الى العربية لحذفنا من كل رواية ثلثها على الاقل

وقد التفتنا قبيل كتابة هذه السطور الى ما في هذه الروايات من الاقوال التي يتمثل الانكليز بها فاخترنا من الرواية الاولى وهي رواية التوه (Tempest) الاقوال التالية وترجمناها وهي

الموت في البر افضل · فدان من القفر ولا غلوة من البحر · ماذا ترين في الزمن الغابر وظلامه الدامس · تركت الدنيا وانقطعت لتثقيف عقلي · امتهن ذاكرتهُ حتى صار يصدق اكاذيبهُ · لقد كانت مملكتي خزانة كتبي · نِعم الارحام ولكن بئس البنون · لا يسكن الشر في بيت من الخير

ان كان للشر بيت مثل ذا طلبت ملائكة الخير ان يبقى لها سكنا

كل ما فيها حسن غير ما تحيا بهِ · الشقاء يقود الى معاشرة الاشقياء · لا يطالب ميت بدَيْن · بلاغة ولا نطق

مضى زمن التصابي والاماني كاحلام بها يومًا انعمنا
فلا قصر ولا برج بباقي وما من هيكل الاَّ ويفنى
ودنيانا سيدركها زوال ولا يبقى لها في الكون معنى
وعمر المرء نوم وهو حلم وليس لهُ ولا للعمر معنى

ولو جرينا على هذا النسق في سائر الروايات للأتينا بمثل هذه الامثال والاقوال المأثورة خمسين صفحة من صفحات المقتطف فان العالم جون بارتلت جمع منها ما ملأ ١٢١ صفحة من كتابهِ المعنون بالمقتبسات المألوفة "Familiar Quotations" مع انهُ لم يستطع ان يجمع من اقوال باكون الفيلسوف الانكليزي المشهور الاَّ ما ملأ ثماني صفحات

ثم قلَّبنا بعض الروايات جزافًا من غير اختيار فترجمنا منها الاقوال التالية

سقيًا لمن قوتهُ قوة جبار وتعسًا لمن يستعمل قوتهُ كالجبار · آهٍ من الانسان وخيلائهِ منح طرفًا من السلطة وهو اجهل الخلق بما يعد نفسهُ اعلمهم بهِ · لا دواء لضيق العيش غير الامل · الم الموت في الخوف من الموت · اشد الرزايا الشيخوخة · الالم والفقر والسجن لا تقاس بالخوف من الموت · الفضيلة لا تخشى والصلاح لا يهاب احداً

كم يشتهي المرء من شرٍّ بباطنهِ ووجههُ كالملاك النور اشراق
لا كان فاهُ حانثٌ ولا عيون مقربهُ
وقبلة الحب خداعٌ من شفاهٍ مزربهُ
ربيع الحبة مثل الربيع تراهُ دواماً اليف التقلب

ليس بانسان من لا يستطيع ان يرضي المرأة باللسان . ما اقوى المزاولة على ترسيخ العادات . لولا تقلُّب الانسان لكان كاملاً . لا تخرجني فتخرجني . انت وما تملك لغيرك وما الانسان الاَّ كمصباح نورهُ لغيرهِ لا لنفسهِ . مَن لا يتنفع الناس بفضلهِ لا فضل لهُ . الطبيعة مُرابٍ تنتظر الشكر الكثير ممَّن تعطي وربما لما تعطيهِ . شكوكنا عدوة انا نخسر بها ما نكسبهُ بدونها لانها تحملنا على ترك العمل رهبةً . قد يكون بين القضاة مَن هو اكبر جرماً ممَّن يقضون عليهِ . قد يعلو الناس بالنقائص و يهبط غيرهم بالفضائل . اقضِ على الخطإ لا على مرتكبهِ . بالبشاشة والترحيب تطيب الوليمة . كلام الحب همس . الصمت دليل السرور . من يسهل عليهِ التعبير عن فرحهِ تفرحهُ قليل . لا يعرف الحزن الاَّ من يعانيهِ

هذا وقد نشرنا في مجلدات المقتطف الماضية طائفة كبيرة من حكم شكسبير وجوامع كلمهِ التي جرت مجرى الامثال عند الانكليز فلتراجع في اماكنها

وقد اجمع النقَّاد على ان شكسبير كان من اعلم الناس بطبائع الناس حتى ان الذين طبعوا رواياتهِ في حياتهِ على غير علم منهُ جعلوا الوصف المرغَّب في مشتراها انها تشرح طبائع الناس على اختلاف درجاتهم وعناصرهم . ولما رثاهُ صديقهُ الحبر بن جنصن جعل بيت القصيد في رثائهِ ما ترجمتهُ

ان الطبيعة فاخرت فيهِ الملا وتسربلت ما حاكهُ في وصفها

ونظر اليهِ شعراء الانكليز كلهم من عهدهِ الى الآن نظر التلميذ الى استاذهِ حتى قال الشاعر درين اني بالرهبة والوقار اطلب بركتهُ وانا اكتب

فالشهرة التي حازها حازها بما في رواياتهِ واشعارهِ من البلاغة والتعبير عن عواطف الناس واميالهم في كل اطوارهم ودرجاتهم و بما بذلهُ اصحاب مشاهد التمثيل من العناية ترغيب الناس فيها ولولا ذلك لاهملت كما اهمل غيرها